حول الفكر العربي :

الغرض من دراسة الفكر العربي

للأستاذ عبد العزيز محمد الزكي

— ١ —

في الوقت الحاضر تبذل الدول العربية قصارى جهدها لتحظى بمكانة دولية مهيبة تساعدها على نيل مآربها السياسية والاستقلالية إلا أن الوصول إلى مثل هذه الغاية يحول دونه عقبات ، من بينها عقبة ضعف الشخصية العربية وضآلتها ، ثم عقبة جهل العرب بمقوماتهم العقلية الممتازة .

ويرجع ضعف الشخصية العربية إلى تهاون العرب في التمسك بأخلاق القرآن ، وتفريطهم في إعطاء التعاليم الإسلامية صبغة عملية يظهر أثرها النافع في الحياة الخاصة والعامة ، بينما يعود جهل العرب بمقوماتهم العقلية الراقية إلى أن الشعوب العربية لم تكلف نفسها مشقة الكشف عن كنه ميولها الفكرية ، أو تهتم بشحذها حتى تنضج ، أو تستعين بكشف الباحثين التي تقدر أن تخوضها وتتفوق فيها ، حتى تستطيع أن تدخل غمار النضال العالمي مزودة بأسلحة أخلاقية سامية وواقعية في نفس الوقت ، وتتم عن شخصية قوية لها صفات مميزة ، ومعونة بمعدات عقلية تستعين بها في إثبات وجودها ككائن حي فعال في الحياة الدولية يختص بأداء عمل معين لا يضارعه فيه كائن آخر من الكائنات الدولية ؛ فيحقق ذلك كله للعرب ما تصبو إليه نفوسهم من رقي ، ويحتلون مكانة دولية تجبر المستعمر على احترام حقوقهم المسلوبة .

أما من ناحية ضعف الشخصية العربية فإنها لن تتقوى ما لم تمهد السبل لبث التعاليم الإسلامية في صورة حية واقعية ، تطلقها من سجن أروقة المساجد وحجرات الدراسة ، وتدفع بها في تيار الحياة اليومية الرحب المتنوع ، حتى لا يشعر أي فرد بوجود انفصال بين الدين والحياة ، ويحس بأن الدين من الحياة وأنه أنزل من السماء ليلبي أغراض الحياة سواء أكانت روحية أو مادية ، ولا يعترض سبيل تطورها ، أو يعوق تقدمها ؛ فإن انقطعت الصلة بين الدين والحياة كما هو الحال في البلاد العربية ، عُد ذلك تقصيراً من رجال الدين في البحث عن هذه الصلة . ولذلك يجب عليهم أن يوثقوا العرى بين تعاليم الدين الإسلامي وحياتنا الحاضرة ، وألا يحيطوا هذه التعاليم بهالة من السمو والرفعة بحيث تعلو عن حياة عامة الناس ، فيصعب عليهم التمثل بها ويظنون أنها تنطوي على قيم عليا لا يقدر أن يصل إليها إلا خاصة الخاصة ، مع أن الدين أراد أن يسلكها الجميع بدون تفرقة . فإذا اتصلت هذه التعاليم بحياة الناس المادية ، وطبقت على شتى ظروفهم الاجتماعية ، أدرك كل عربي جدوى التمسك بالدين الإسلامي ، ولمس فائدته الروحية والمادية معاً ، فيعتقد أن الدين قوة دينية كما هو طريق إلى الله .

إن غرض الفتوح العربية في صدر الإسلام كان نشر الدين الإسلامي خارج حدود بلاد العرب . ولقد استبسل الكثير من العرب ، واستشهدوا في سبيل الله ، ففازوا بالجنة من ناحية ، ونال أهله من ناحية أخرى قسطاً من الغنائم مثل بقية الجنود العائدين من الحروب .

فالقتال في سبيل الله وإن كان باعثه دينياً يخلد الشهيد في الجنة ، وهذه غنيمة روحية ، يضمن كذلك لعائلته من بعده العيش الرغد وهذه غنيمة مادية ، أحس كل عربي بمدى فائدة الاستشهاد من أجل نشر الإسلام من الناحيتين الروحية والمادية ، فأقبل على الجندية وخاض الوغى بشجاعة لا تقهر ، فاستطاع على قلة عدده وعدده أن يزيل من الوجود الدولة الفارسية ، ويزعزع أركان الدولة الرومانية .

وفي هذا الجو السماوي الأرضي عرف العرب قديماً كيف يثبتون دعائم الدين الإسلامي في النفوس . وفي هذا الجو كذلك يقدر العربي في الوقت الحاضر أن يقضي على ما تركته المدنية الغربية في نفسه من القلق الوجداني والاضطراب العقلي ، لانقياده المطلق لمغرياتها المادية ومفاتنها الحسية ، ولإهماله تهيئة الحياة الروحية التي تلائم مزاجه وتبعثه على طلب الكمال .

ولقد سبقنا الهنود في المضمار الديني الاجتماعي ، وأخذ المفكرون الهنود من أمثال راما كريشنا وفيفكانندا يستوحون

تراثهم الديني القديم ، ويعرضونه في أسلوب حديث يتفق وغايات الحضارة الحديثة بدون أن يخل بأصول الفكر الهندي الروحي . ثم جاء طاغور ووضع القواعد الثابتة للحياة الهندية الكاملة ، وأبرزها في صورة واضحة في كتابه « سادهانا » استقاها من تعاليم الكتب الهندية المقدسة ، ودعمها بروح الغرب العملية ، فأعطى المبادئ المثالية قيماً واقعية تنفع في الحياة . وبعد أن كان الهندي ينزع لاجتناب الحياة أصبح بفضل هؤلاء المفكرين لا يقدس الزاهد الهارب للحياة ، المنزل للأهل والوطن ، والفارق في نفسه ، والهارب من مشاكل الأرض ، وإنما يقدس الزعيم القوي الذي تمثل في شخصية غاندي ، ، ذلك البطل الوطني الذي دفع بمقومات الهند الروحية في ساحة النضال السياسي ، فنالت بلاده حريتها ، فعرف الهنود من مفكرين وسياسيين كيف يتفادون عيوبهم القديمة ، ويتغلبون على ميلهم إلى اعتزال الحياة ، ويبرزون قدرتهم على احتمال الألم في سبيل الغايات القومية بعد أن كانت قاصرة على الغايات الدينية الصرفة .

وها هو نهرو خليفة غاندي يقتفي أثره ، ويسير على هدى الطابع الهندي ، فما كاد يطمئن على استقلال بلاده ، ويضمن ود الباكستان ، حتى بادر بخوض مجال دولي حيوي أراد أن تساهم فيه بلاده في خدمة الإنسانية ، وتؤدي ما عليها من واجبات في سبيل رسالتها الروحية التي ترغب في أن تعم بلاد العالم أجمع . فدعا لعقد مؤتمر ينشد من طريقه ضم شمل الدول التي تعتنق المثل العليا والمبادئ المعنوية ، وتؤمن بقوتها في تدعيم السلام ، كما يبغي توحيد صفوفها لتتعاون على إنقاذ العالم مما هو فيه من تفكك وتنازع ، وذلك بالقضاء على النزعات الاستعمارية ، وبث روح المحبة والوئام في ربوع العالم .

وهكذا عرف نهرو كيف يختار المجال الوحيد الذي تقدر العبقرية الهندية أن تشترك فيه ، وتظهر براعة لا تفوقها براعة ، فنجح في استغلال استعدادات قومه الأصلية في إعلاء شأنهم ، ورفع مكانتهم بين الدول .

فأمام الغرب نموذج من الفكر الديني الخالق الذي استطاع أن يرفع عن كاهل بلاده كابوس الاستعمار بفضل تعاليم غاندي في المقاومة السلبية ، وأن يقتحم الميدان الدولي متخذاً من أساليبه الروحية وسيلة لتحقيق سلام العالم ، وهي غاية هندوكية قبل أن تكون غاية سياسية إنسانية ؛ فهيأ بذلك لمبادئه الدينية قوة إيجابية

أما كيف يعطي الفكر العربي تعاليمه الإسلامية قيمة عملية فعالة وناقعة في حياتنا الخاصة والعامة ، فذلك يكون بعد تطبيقها تطبيقاً جديا واسع النطاق يشمل المجتمع العربي بأكمله . فكل ما تأمر به التعاليم الإسلامية من تشريعات لا ينبغي أن نهمل ونستعاض عنها بغيرها من تشريع الغرب ، وبحجة أنها أكثر إنسانية . فنرفض قطع يد السارق وجلد الزاني ورجم الزانية ، فإن ذلك يضعف من قوة ديننا ، ويقلل من قدرته على مواجهة مشاكل الإنسان ، وذلك يورث في نفوسنا نوعاً من المهانة ، فنستكين للتشريعات الغير ، بينما يجب أن نتمسك بتشريعات الإسلام ، لا بدافع من نعرة دينية رجعية ، ولكن بدافع من المحافظة على روح الأمة العربية ، وصيانة كيان حياتهم الاجتماعية . وكل ما في القرآن الكريم والحديث الشريف من مثل عالية يجب أن تؤسس عليها الأخلاق العربية . وكل ما يتضمنه هذا الكلام المقدس من حكم يجب أن تقوم بها أهواءنا ورغباتنا ، حتى تصفو نفوسنا مما علق بها من شوائب المدنية الحاضرة ، وتعيش في كنف حياة روحية ترتاح إليها عقولنا العربية ، فتقدر أن تستوحيها ، وتنهج سبل التطور إلى أن تكيف التعاليم الإسلامية بظروف الحضارة المعاصرة بدون أن تفقد شيئاً من أصالتها .

فإخراج هذه التعاليم من منابر الجوامع إلى ساحة الحياة الاجتماعية يعد أمراً ضرورياً لنهضتنا الحضارية . إن غاندي عندما علم الهنود المقاومة السلبية قد أضاف إلى مبدأ عدم العنف الهندوكي من القوة ما ألهب مشاعر قومه الدينية ، وأوهب الانجليز وهز امبراطوريتهم ، فكان عمله هذا أعظم عمل ديني أداه هندي لوطنه . فنحن نريد أن نشعر بقوة مفعول تعاليمنا الدينية في أعمالنا وتصرفاتنا حتى يزداد إيماننا بها قوة ، ولا نفكر في أن نتخلى عنها ، ونبذل جهد الطاقة لكي نبثها في جميع صور الحياة الدنيوية ، فيكون ذلك باعثاً رفيعاً على طلب الرقي ، ودافعاً عظيماً إلى تشييد حضارة عربية تستمد مقوماتها من صلب التعاليم الإسلامية ، وتجاري المدنية الغربية في نفس الوقت .

عبد العزيز محمد الزكي
مدرس الآداب بمدرسة صلاح الدين الأيوبية بكفر الزيات